حجة الاسلام أبو حامد الغزالي

(٤)

قصة الكلام في رأيه في العلوم الطبيعية

﴿ تابع لما في الجزء التاسع ﴾

(مقدمة رابعة)(١) من عظائم حيل هؤلاء في الاستدراج اذا أورد عليهم اشكال في معرض الحجاج قولهم ان هذه العلوم الالهية غامضة خفية، وهي أعصى العلوم على الافهام الذكية ، ولا يتوصل الى معرفة الجواب عن هذه الاشكالات ، الا بتقديم الرياضيات والمنطقيات: فمن يتقدم في كفرهم ان خطر له اشكال على مذهبهم يحسن الظن بهم و يقول لا شك أن علومهم مشتملة على حله وانما يعسر علي دركه لاني لم أحكم المنطقيات ولم أحصل الرياضيات

(فنقول) أما الرياضيات التي هي نظر في الكم المنفصل وهو الحساب فلا تعلق لها بالالهيات وقول القائل ان الالهيات تحتاج اليها خرق كقول القائل ان الطب والنحو واللغة يحتاج اليها الحساب أو الحساب يحتاج الى الطب . وأما الهندسيات التي هي نظر في الكم المتصل يرجع حاصله الى بيان ان السموات وما تحتها الى المركز كروي الشكل و بيان عدد طبقاتها أو بيان عدد الاكر المتحركة في الافلاك و بيان مقدار حركاتها فلنسلم لهم جميع ذلك جدلا أو اعتقادا فلا يحتاجون الى اقامة البراهين عليه ولا يقدح ذلك في شيء من النظر الالهي وهو كقول القائل « العلم بأن هذا البيت حصل بصنع صانع بناء عالم مريد قادر حي يفتقر الى أن يعرف أن البيت مسدس أو مثمن وان يعرف عدد جذوعه وعدد لبناته » وهو هذيان لا يخفى فساده وكقول القائل « لا يعرف كون هذه البصلة حادثة ما لم يعرف عدد طبقاتها ولا يعرف كون هذه الرمانة حادثة ما لم يعرف عدد حباتها » وهو هجر من الكلام مستقبح عند كل عاقل

---

(١) من مقدمات كتابه تهافت الفلاسفة

« نعم توهم ان المنطقيات لا بد من أحكامها هو صحيح ولكن المنطق ليس مخصوصا بهم وانما هو الاصل الذي نسميه في فن الكلام « كتاب النظر » فغيروا عبارته الى المنطق تمويلا وقد نسميه كتاب الجدل وقد نسميه مدارك العقول فاذا سمع المكابس والمستضعف اسم المنطق ظن أنه فن غريب لا يعرفه المتكلمون ولا يطلع عليه الا الفلاسفة ونحن ندفع هذا الخيال واستئصال هذه الحيلة في الاضلال ، نرى ان نفرد القول في مدارك العقول في غير هذا الكتاب ونهجر فيه ألفاظ المتكلمين والاصوليين بل نوردها بعبارات المنطقيين ونصبها في قوالبهم ونقتفي آثارهم لفظا لفظا ونناظرهم في هذا الكتاب بلفظهم أعني بعباراتهم في المنطق ونوضح ان ما شرطوه في صورته في كتاب القياس وما وضعوه من الاوضاع في ايساغوجي وقاطيغورياس (١) التي هي من أجزاء المنطق ومقدماته لم يتمكنوا من الوفاء بشيء منه في علومهم الالهية ولكنا نرى ان نفرد مدارك العقول في غير هذا الكتاب فانه كالآلة لمدارك مقصود هذا الكتاب ونفرده كتابا مفردا يرجع اليه ولكن وجب ناظر يستفتي منه في الفهم فيؤخره حتى يعرض عنه من لا يحتاج اليه ومن لا يفهم ألفاظنا في آحاد المسائل في الرد عليهم فينبغي أن يبتدئ اولا بحفظ الكتاب الذي سميناه معيار العلم الذي هو الملقب بالمنطق عندهم » اه كلام ابي حامد في فاتحة كتابه تهافت الفلاسفة . وذكر بعد ذلك فهرس المسائل التي اظهر تناقض مذهب الفلاسفة فيها وهي عشرون مسألة ثم قال مانصه :

« فهذا ما اردنا ان نذكر تناقضهم فيه من جملة علومهم الالهية واما الرياضيات فلا معنى لانكارها ولا للمخالفة فيها فانها ترجع الى الحساب والهندسة . واما المنطقيات فهي نظر في آلة الفكر في المعقولات ولا يتفق فيه خلاف به مبالاة »

وقد علم مما نقلناه عن كتابه المنقذ من الضلال ان المسائل العشرين من

---

(١) لم يكد يشتهر من الكلم اليوناني في المنطق العربي غير هاتين الكلمتين فالاولى (ايساغوجي) وهي علم على الكليات الخمس والثانية (قاطيغورياس) وهي عبارة عن المقولات العشر

الفلسفة الالهية التي بين في هذا الكتاب تناقضهم فيها ليست الا أغلاطا وابتداعات الا ثلاث مسائل عدها من الكفر وهي (١) إنكارهم البعث الجسماني زاعمين ان الثواب والعقاب في الآخرة يكونان على الارواح المجردة . و (٢) زعمهم ان العالم قديم أزلي . و (٣) زعمهم ان الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات (راجع ص ٦٩٩) واما الرياضيات والمنطقيات فليس فيها شيء يعد بدعة ولا كفرا بل هي علوم حقيقة نافعة وكذلك الطبيعيات وان كثرت فيها الى عهد النظريات

ولعمري انه لولا تساهله وتسامحه لاستخرج اكثر من هذا من أغلاطهم المبنية على نظرياتهم الفاسدة . وما حمله على تلك الحملة عليهم الا ما رآه من كبر كثير من المفكرين بعلومهم لقيود التقوى، وتبجحهم بفخر وب الفخر وزخرف الدعوى، حتى كادت تعمى بصائرهم البلوى ، ولم يكن لها في عصره فائدة دنيوية تذكر . وقد كان رحمه الله فيلسوفا عمليا لا نظريا فقط ألم تر كيف جعل المسائل الطبيعية من لباب الدين بما نفخ فيها من روحه في كتاب التفكر من الاحياء اذ يبحث فيه عن اعضاء الانسان ووظائفها وحكمها ومما تتألف منه على طريقة الاطباء حتى انه يذكر عدد عظام العضو . كذلك يبحث في الارض والهواء والبحار والحيوان والنبات بحثا يدل على أنه كان واقفا على علوم الكون الطبيعي كما انتهى اليه علم الفلاسفة في عصره الى ما له هو من الرأي المبتكر فيه ومنه ان الماء ليس عنصراً بسيطاً كما كانوا يقولون بل هو مركب وقد حقق رأيه المتأخرون .

ومما يعده من طرائف الحيوان قوله في الكلام على اصناف الحيوانات من كتاب التفكر « ولنورد نحن ان شاء الله تعالى عجائب النملة او النحلة او العنكبوت وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي اتخاذها لقوتها وفي حفظها في عندمة بيتها وفي هدايتها الى حاجتها لم تقدر على ذلك فترى العنكبوت يمتد على طرف نهر فيطلب اولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يلقي الخيط الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يتدلى الى الجانب

الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا حتى اذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة فاذا وقع الصيد بادر الى اخذه واكله فان عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكسا في الهواء بخطر ذبابة تطير فاذا طارت رمى بنفسه اليها (١) فاخذها ولف خيطه على رجليه واحكمه ثم اكله .

« وما من حيوان صغير ولا كبير الا وفيه من العجائب ما لا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه او كونه آدمي أو علمه ؟ اولا هادي له ولا معلم؟ افيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز؟ بل الفيل العظيم شخصه القاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه ، فكيف هذا الحيوان الضعيف ؟ افلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم ؟ فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات . وهذا الباب ايضاً لا حصر له فان الحيوانات واشكالها واخلاقها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة . نعم اذا رأى (الانسان) حيوانا غريبا ولو دوداً تجدد عجبه وقال : سبحان الله ما أعجبه ! والانسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه » اه

فعلم من كل ما تقدم أن رأي الغزالي في العلوم الدينية بطريق التفصيل هو أن كل علم يحتاج اليه الناس في معايشهم ومصالحهم فهو من فروض الكفاية وما زاد عن الحاجة من مباحثه الكمالية يعد فضيلة لا فريضة كما صرح به في الكلام على علم الحساب من الاحياء . وما لا يحتاج اليه منها الا لنحو فسلفة فهو

(١) هكذا ذكر الضمير مذكرا في هذه الكلمة وما بعدها ولعله قد سقط قبلها كلام فيه ذكر الصيد مثل « جعلها (أي الذبابة) صيدا » ورمى بنفسه اليها الخ

مباح مالم يكن فيه ضرر أو مفسدة دينية او دنيوية . وأن ما كان ضارا منها فهو محرم كالسحر والتلبيس والدجل . وان العلوم الرياضية لا ضرر في شيء منها وان العلوم الطبيعية اذا قرنت بالعبرة وتنبيه الذهن الى ما فيها من الحكم الدالة على علم الخالق وحكمته ورحمته تكون من علوم الدين التي حث عليها القرآن واذا اتبعت فيها الطريقة النظرية اليونانية تكون قليلة الجدوى كثيرة الاغلاط ولكن الغلط فيها لا يصادم عقيدة الاسلام ولا يقتضي خروج صاحبه من الدين . وان في الفلسفة الالهية ثلاث مسائل تعد من الكفر الصريح . وقد ذكرناها آنفا . وأن علم المنطق من مقدمات علم الكلام . وأما علم الكلام فهو ضار بالعوام ويجب ان لا يوجه الا لمن عرضت لهم الشبه في عقائدهم أو لمجادلة من يوجهون الشبه الى المسلمين لتشكيكهم في دينهم كما سيأتي . وهو عنده وعند علماء الصوفية العارفين غير علم التوحيد ولذلك جعل للتوحيد والتوكل كتابا في الاحياء غير كتاب قواعد العقائد. على ان ما كتبه في قواعد العقائد ليس فيه من جدل المتكلمين الا قليل بقدر الضرورة . وقد علمت ان المتكلمين مزجوا بين جميع العلوم الطبيعية والفلسفة اليونانية و بين العقائد الاسلامية وسموا ذلك كله علم الكلام ولذلك قيل ان ان موضوع علم الكلام هو الوجود والغزالي لا يعده من علوم الدين

بل من رأيه ان علم الاحكام الذي يسمونه الفقه من علوم الدنيا لا من علوم الدين وأن طلاب الآخرة يكتفون من هذا العلم بقدر ما يحتاج اليه في القضاء والافتاء ولا يشتغلون باستنباط ما لا تدعو الحاجة اليه بل يصرفون سائر الوقت في علم الدين والعمل الذي يقرب العبد من ربه عز وجل كما تفصل ذلك في الفصل الآتي

(رأيه في العلوم الشرعية)

قسم العلوم في الباب الثاني من كتاب العلم من الاحياء الى محمودة ومذمومة والمحمودة الى شرعية وغير شرعية . وقد تقدم بيان رأيه في العلوم غير الشرعية وأن منها ما هو فريضة وما هو فضيلة وما هو مباح . وقال « واما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعوذة والتلبيسات » ثم تكلم بعد ذلك في العلوم الشرعية

وقبل أن نذكر تفصيل رأيه فيما نذكر رأيه في العلم الذي هو فرض عين

العلم الذي هو فرض عين

وذكر في أول الباب الثاني اختلاف العلماء في العلم الذي هو فرض عين على كل مكلف وزعم كل من غلب عليه علم من التفسير والحديث والكلام والفقه والتصوف ان علمه هو فرض العين . وجزم هو بأن فرض العين هو العلم بمعنى كلمتي الشهادة وما يتبعه من العقائد السمعية من غير شك ولا اضطراب والعلم بالطهارة واحكام الصلاة عند دخول وقتها وباحكام الزكاة عند وجوبها على المكلف وكذلك الحج وباحكام الصوم عند مجيء رمضان وكذلك حكم كل ما يكون بصدد العمل به فاذا تصدى للتجارة وجب عليه معرفة ما يحترس به من الوقوع في الحرام بقدر الحاجة حتى انه قيد وجوب تعلم المحذر من الربا بشيوعه في البلد . وكذلك تحريم اكل الخنزير ونحوه . وهو يقول في مواضع من كتبه ان المكلف اذا مات قبل ان يعلم شيئا مما يذكره المتكلمون في صفات الله تعالى كلمه وكلامه هل هي عين الذات او غير الذات وهل هي قديمة أو حادثة بأن لم يفكر في ذلك أصلا ، وقبل ان يعلم بتحريم كثير من المحرمات التي لم يكن عرضة للوقوع فيها فلا يكون ناقصا في دينه ولا مسؤلا يوم القيامة عما جهله من ذلك ونحوه .

وبعد تفصيل في ذلك قال « وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب فمن علم الواجب وقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين

« وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو (الشيطان) ولمة الملك حق ايضا ولكن في حق من يتصدى له فاذا كان الغالب أن الانسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد فيلزمه ان يتعلم من ربع المهلكات (١) ما يرى نفسه محتاجا اليه . وكيف لا يجب وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع

(١) المهلكات هو الربع الثالث من كتاب الاحياء الذي يذكر فيه الاخلاق المذمومة وكيفية معالجتها بعد التلبس بها والاحتراس عنها قبله

وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه » (١) « ولا يخلك عنها بشر . وبقية ما سنذكره عن مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب (٢) واخواتها تتبع هذه الثلاث المهلكات وإزالتها فرض عين ولا يمكن ازالتها الا بمعرفة حدودها ومعرفة اسبابها ومعرفة علامتها ومعرفة علاجها فان من لا يعرف الشر يقع فيه والعلاج هو مقابلة السبب بضده وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب ؟ فاكثر ماذكرناه في ربع المهلكات من فروض الاعيان وقد تركها الناس كافة اشتغالا بما لا يعني »

---

(١) وفي نسخة الشارح زيادة لفظ « الحديث » وهي اشارة الى ان له بقية وهو بطوله كما رواه البزار في مسنده وابو نعيم في الحلية من حديث أنس « ثلاث كفارات، وثلاث درجات، وثلاث منجيات، وثلاث مهلكات اما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة ، واسباغ الوضوء في البردات ، ونقل الاقدام الى الجماعات . واما الدرجات فاطعام الطعام ، وافشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . واما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية . واما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » ورواه بسياق المصنف غير واحد وله اسانيد كلها ضعيفة

(٢) العجب هو الاعجاب ولعله اراد الحسد او نحوه فسبق قلمه او لم يكن الغلط من الناسخين